من نقطة الصفر ، ومنها الى درجة الاحساس ثم الادراك الحاسي . فالادراك فالتذكر فالتفكير ثم الى درجات النضوج العقلي ، ثم يسير مستوياً الى أن يبدأ بالانحدار العقلي ليفقد الذاكرة الحادة ، ثم الى ضعف في المحاكمة العقلية الى ضعف في المدركات الحاسية في أواخر الشيخوخة .

فالمنهج التتبعي يدرس الانسان في مظهر من مظاهره التكوينية سواء أكان ذلك جسمياً أم عقلياً أم لغوياً أم عاطفياً أم اجتماعياً . وعلم النفس التكويني لا يدرس إنساناً واحدا فقط ولكنه يدرس أكبر عدد ممكن من الأفراد وفي بيئات مختلفة وأقوام متباينة حتى يتوصل الى متوسطات للتكوين السوي لدى « الانسان » العادي وذلك ما يمهد السبيل للتنبؤ عن الأفراد . وما يتوقع منهم في شتى سني الحياة من مراحل التكوين السليم ، فهذه الدراسات تقدم لنا صورة متكاملة عن التكوين النفسي للانسان في مراحل العمر وفي إبعاد التكوين من بعد .

فاذا عرفنا أن ذلك الانسان يمر الآن في مرحلة الطفولة أدركنا تكوينه العقلي أو اللغوي أو الانفعالي . وإذا عرفنا أن فرداً آخر يمر بمرحلة الشباب أو الكهولة أدركنا ما يتفاعل فيه من عوامل انفعالية وعقلية واجتماعية وذلك ما يساعد المربين والمصلحين الاجتماعيين والآباء . ويقدم لهم أكبر عون فيما يقدمون من مناهج أو تخطيط .

وعلم النفس التكويني مدين في تقدمه الحديث الى هذا المنهج التتبعي وفي تحديد مواطن البحث والتجريب ونتائجه التطبيقية في شتى الميادين .

اتجاه الدراسات التتبعية : تسير الدراسات التتبعية في ثلاثة اتجاهات متباينة التتبع الطولي ، والمستعرض والاسترجاعي . فالتتبع الطولي يبدأ من الحاضر الى المستقبل ، والمستعرض يسير في نفس الزمن الواحد بين أفراد ، وأما الاسترجاعي فيعود الى الوراء من الحاضر الى الماضي .

الطريقة التتبعية الطولية :

تدرس هذه الطريقة بعداً واحداً من أبعاد التكوين في سلم التكوين من الصغر

الى القوة ثم الى الشيخوخة وبعد دراسته في أعداد هائلة من الافراد نتوصل الى معرفة المستوى العام للنضج التكويني المتكامل لكل سنة من سنوات الحياة . وتمكنا هذه المستويات الناضجة السوية من مقارنتها بالمستوى الذي يصله أي إنسان في أي سنة معينة . لنرى ماذا كان الفرد المعين سوياً في تكوينه النفسي أم غير سوي ، وهذا ما يقودنا بالتالي الى دراسة عوامل الضعف لتلافيها أو القوة لتشجيعها في تكوين الافراد. وتعتمد هذه الطريقة على الملاحظة المقصودة ، وعلى التسجيل الدقيق .

الطريقة التتبعية المستعرضة :

يدرس الباحث في هذه الطريقة بعداً واحداً من أبعاد التكوين جسمياً أو عقلياً أو لغوياً أو عاطفياً في افراد كثيرين ذوي عمر زمني واحد ، ويتمكن الباحث في هذه الطريقة من اكتشاف المتوسطات أو المعدلات لكل مرحلة تكوينية زمنية التي تتمثل بما تحققه الاكثرية الكبرى في الافراد في كل مجتمع عادي متوازن. وسميت هذه الطريقة بالمستعرضة لانها تدرس مظهراً واحداً في قطاع عرضي من الزمن في سلم التكوين الصاعد أو النازل . وتفيد هذه الطريقة أيضاً بوضع اختبارات مقننة المعايير التكوينية ولبيان مدى صلاحيتها ، وتستخدم هذه الطريقة ما توصل اليه علم النفس الحديث من أقيسة وأجهزة واختبارات لمعرفة المستوى اللغوي أو العقلي أو الانفعالي . ولاكتشافات أنماط الشخصية واتجاهات الميول في كل مرحلة من مراحل النمو النفسي .

تكامل الطريقتين :

هاتان الطريقتان متكاملتان يتمم احداهما الاخرى وتستعين بها .فكلاهما يبدأ من الحاضر باتجاه طولي أو عرضي وتكاملهما يتحقق حين يقوم الباحث بدراسة افراد من الناس في مختلف ابعاد التكوين في سنوات متتابعة من النمو . وهنالك تتكامل الدراسة النفسية للانسان في شخصيته . التي ما أشبهها بالنسيج القوي المتماسك الذي احكم فيه تفاعل لحمة خيوطه مع سداها . والطريقتان تزود كل منهما الأخرى في تحديد مواطن البحث والتحليل .